

العِلْمُ والعمرانُ في شعر الغرب الإسلامي إبّان القرن السادس للهجرة

Science and Urbanization in the Poetry of the Islamic West during the Sixth Century AH

طه شقرون

Taha chekroun

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان (الجزائر)، tahasalim13@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/05/31

تاريخ القبول: 2026/05/15

تاريخ الاستلام: 2025/09/24

الملخص: يهدف هذا البحث إلى دراسة انعكاس النهضة العلمية والعمرانية في نتاج الشعراء خلال هذه الحقبة، مبرزاً كيف جسّدوا في قصائدهم صور الاهتمام بالعلم ومظاهره من كُتُبٍ وأدواتٍ ومجالسٍ ومدارسٍ ومكتباتٍ، إلى جانب المدن والقصور والحصون والأسوار والبرك والنواير والدواليب وغيرها من المعالم العمرانية، بأسلوب بلاغي يجمع بين التوثيق الفني وإبراز الفخامة الحضارية، وينطلق البحث من إشكالية تتبّع كفايات حضور هذين البعدين في النصوص، وتحليل الأبعاد الجمالية والفكرية التي أضفاها الشعراء على صور العمران ومجالس العلم، فهي قراءة تجمع بين التاريخ والأدب، وتكشف عن أنّ الشعر لم يكن مجرد انعكاس للواقع، بل كان أداة لإعادة صياغته وتخليده في وجدان الأمة من خلال توثيق الحياة العلمية والعمرانية، كما كان مصدراً مهماً كملاً للمؤرخين، يعكس روح الاستقرار والازدهار التي ميّزت القرن السادس الهجري في الغرب الإسلامي.

كلمات مفتاحية: علم، عمران، شعر، غرب، إسلام، قرن.

Abstract

This research aims to study the reflection of the scientific and urban renaissance in the works of poets during this period, highlighting how they embodied in their poems images of interest in science and its manifestations in books, tools, councils, schools, libraries, as well as cities, palaces, forts, walls, ponds, waterwheels, and other urban landmarks, in a rhetorical style that combines artistic documentation with an emphasis on cultural grandeur. The research starts from the problem of tracing the presence of these two dimensions in the texts and analysing the aesthetic and intellectual dimensions that the poets added to the images of urbanisation and councils of science. It is a reading that combines history and literature and reveals that poetry was not merely a reflection of reality, but rather a tool for reshaping and immortalising it in the consciousness of the nation through the documentation of scientific and urban life. It was also an important source of information for historians, reflecting the spirit of stability and prosperity that characterised the sixth century AH in the Islamic West.

Keywords: Science, Urbanization, Poetry, West, Islamic, Century.

المؤلف المرسل: طه شقرون، الإيميل: tahasalim13@gmail.com

1. مقدمة:

يُعدّ القرن السادس الهجري مرحلة فارقة في تاريخ الغرب الإسلامي، حيث شهدت البلاد - في ظل الدولة الموحدية - نهضة حضارية شاملة امتزج فيها البناء العمراني الراقي بالنهضة العلمية والفكرية المتألقة، فقد امتدت سلطة الموحدين على رقعة واسعة من الغرب والأندلس، وأوجدوا حالة من الاستقرار السياسي والأمني انعكست مباشرة على ازدهار المدن وتشييد القصور والمساجد والأسوار، وعلى رعاية الحركة العلمية وتشجيع العلماء والأدباء، فكانت مراكش، وفاس، وتلمسان، وبجاية وإشبيلية مراكز إشعاع حضاري تتنافس في جمال العمارة وغنى الحياة الثقافية.

وفي هذا السياق، برز الشعر بوصفه مرآة صادقة تعكس مظاهر الحضارة وتوثّق نبض الحياة، فالتقطت القصائد مشاهد العمارة المهيبة والزخارف البديعة، ورسمت بريشة الكلمات صورة الحقائق والرياض الغناء، كما سجّلت حضور مجالس العلم ومآثر العلماء والفقهاء، مشيدة بدورهم في إثراء الفكر وصيانة الهوية، ولم يقتصر الشعر على الوصف السطحي لهذه المظاهر، بل تجاوز ذلك إلى تصوير القيم الكامنة وراءها: من عظمة الدولة، ورسوخ الدين، وتقدير العلم، وصولاً إلى إبراز التفاعل الخلاق بين الجمال المادي والثراء المعرفي.

وبناءً على ما سبق فإنّ طرح هذا الموضوع يثير تساؤلات حول مدى قدرة الشعراء على تجاوز حدود الوصف الحسي إلى صياغة رؤية حضارية متكاملة تربط بين العلم والعمران وتبرز دورهما في بناء المجتمع، وهل اكتفى خطابهم الشعري بوصف المظاهر المادية أم تجاوز ذلك إلى استبطان قيمها الحضارية والفكرية، وربطهما بالهوية الثقافية والسياسية لعصرهم؟ وما أبرز المظاهر العلمية والعمرانية التي طرقتها شعراء هذه الحقبة؟ وهل كان الشعر مجرد انعكاس للواقع أم وسيلة للتأثير والتحفيز على البناء والازدهار؟

كان انطلاقنا من فرضيات أنّ الشعر في الغرب الإسلامي لم يكن مجرد انعكاس وصفي لمظاهر العلم والعمران، بل مثّل خطاباً حضارياً يحمل أبعاداً فكرية وقيمية، كما أنّ السياق الثقافي والسياسي لهذا العصر كان محفزاً على إنتاج نصوص شعرية تحتفي بالعلم والعمران وتربطهما بمشروع الدولة الحضاري لتأكيد الهوية الثقافية في مواجهة التأثيرات الخارجية.

جاء هذا الموضوع بهدف الكشف عن الكيفية التي عكس بها الشعر في الغرب الإسلامي إبان القرن السادس الهجري مظاهر النهضة العلمية والعمرانية، وتحليل الصور والأفكار التي وظفها الشعراء للتعبير عن هذه المظاهر، مع إبراز دلالاتها الجمالية والفكرية والحضارية وربطها بالسياق التاريخي والسياسي والثقافي للعصر، وتوضيح دور الشعر في توثيق النهضة الحضارية والمساهمة في ترسيخ قيمها.

يعتمد هذا البحث منهجاً تاريخياً تحليلياً يجمع بين دراسة السياق الحضاري والسياسي للبلاد في تلك الحقبة، وتحليل النصوص الشعرية للكشف عن الصور والدلالات المرتبطة بالعلم والعمران، مع توظيف المنهج المقارن عند الحاجة لإبراز خصوصية التجربة الشعرية في المنطقة، والله نسأل التوفيق والسداد.

2. الجانب العلمي:

حُظي العلم في الغرب الإسلامي إبان القرن السادس الهجري بمكانة مرموقة، إذ أولته الدولة الموحدية عناية خاصة باعتباره ركيزة أساسية في مشروعها الحضاري، وقد تجلّت هذه العناية في إنشاء المدارس ودور العلم والمكتبات الكبرى، وفي مقدمتها مكتبة مراکش التي ضمت نفائس الكتب من المشرق والمغرب، إضافة إلى مكتبات جامع القرويين بفاس، وجامع تلمسان، وجامع إشبيلية (المراكشي ع.، 1426هـ/2006م، الصفحات 238-240)، كما شجّع الخلفاء العلماء على البحث والتأليف، وقرّبهم من مجالسهم، ومنحهم الدعم المادي والمعنوي، وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف من أكثر الحكام حرصاً على جمع الكتب ونشر المعرفة (الصلابي، 1998، صفحة 190).

ومن أبرز مظاهر العناية بالعلم في هذه الفترة، إحياء حلقات الدرس في المساجد الكبرى، التي كانت بمثابة جامعات مفتوحة لتدريس العلوم الشرعية واللغوية والعقلية، حيث دُرست علوم التفسير والحديث والفقه، إلى جانب الطب والفلك والرياضيات والفلسفة (المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، 1397هـ-1997م، الصفحات 51-53)، كما برزت أسماء لامعة في مجالات الفكر والبحث، مثل ابن طفيل، وابن رشد، وأبو الحسن علي بن حرملّة التلمساني، الذين أسهموا في إثراء الفكر الإنساني بجهودهم العلمية والتأليفية (فروخ، 1981، صفحة 174).

وقد انعكس هذا الاهتمام بالعلم على الحياة الثقافية والأدبية، حيث وجد الشعراء في هذه النهضة المعرفية مادة خصبة للإبداع، فمدحوا العلماء، وأشادوا بفضائل العلم وحثوا على طلبه وصحبة أهله كما اهتموا بالمكتبات فوصفوا الكتب وأوعيتها، كما وصفوا أدوات العلم ومجالسه وربطوا بينه وبين قوة الأمة ونهضتها، مؤكدين أنّ المعرفة زاد الروح وعماد العمران.

1.2 طلب العلم وصحبة أهله:

نظم في هذا الباب الشاعر أبو الحسن الأشونى (ت537هـ)، حيث قال:

إِنَّ الْعُلُومَ لِلْأَشْخَاصِ مُعَيَّنَةٌ فَلَا يُرَاهَنُ إِلَّا لُبٌّ مَنْ دَرَسَا
مَنْ شَرَدَ النَّوْمَ وَالظُّلُمَاءُ عَاكِفَةٌ فَكَيْفَ حَتَّى يُضَاهِيَهُ الَّذِي نَعَسَا

فَأَدْرُسُ تَسُدُّ وَتَكُنْ فِي النَّاسِ مُعْلِيًّا رُوحٌ - هُدَيْتَ - لِنُورِ الْعِلْمِ مُقْتَنِيًّا (المراكشي ا، د.ت،

صفحة 327)

تمثل هذه الأبيات دعوة صريحة إلى طلب العلم والاجتهاد فيه، إذ يبين الشاعر أنَّ العلوم لا تُنال إلا لمن أخلص نفسه لها وداوم على دراستها بعقل حاضر وجهد متواصل، فلا يدرك جوهرها الكسول أو الغافل، بل من طرد النوم وسهرت عيناه في ظلمة الليل طلباً للفائدة، فهو أرفع منزلة ممن استسلم للنعاس والراحة. ومن هنا يوجه نداءً واضحاً بأن الجدَّ في الدراسة سبيل للسيادة والرفعة بين الناس، وأنَّ العلم نور يقتبس منه الطالب الهداية والرقى، فجمع الشاعر بين التحفيز العملي والبعد القيمي، رابطاً بين السهر والصبر من جهة، والمكانة والشرف من جهة أخرى.

كما أنَّ للعلم مكانة كبيرة فهو صفة من صفات الله عزَّ وجل: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 13]. وأتت سبحانه وتعالى قد أمر به قبل العمل ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبُكُمْ وَمُتَوَكِّلٌ﴾ [محمد: 19]. وما ذلك إلا لأنَّ صحة العمل مرهونة به، وطلبه فريضة، كما أخبر بذلك الرسول s عليه وسلم: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ" (الألباني، 1419هـ-1998م،

صفحة 407)

وقال أيضاً عن طلبه في الصغر: (المراكشي ا، د.ت، صفحة 327)

تَعَلَّمُ خَلِيلِي حِينَ الشَّبَابِ تَفْقُّ بِالْعُلُومِ الرِّجَالَ الْكِبَارَا

فَمَنْ وَاضَبَ الْعِلْمَ صَاحِ صَغِيرَا نَفَى عَنْهُ عِنْدَ السُّؤَالِ الصَّغَارَا

يحمل البيتان معنى تعليمي واضح، يحثُّ الشاعر فيهما على طلب العلم في سنَّ الشباب، لأنَّ هذه المرحلة أنسب للحفظ والتحصيل، وبالعلم يسمو المرء فوق من يكبرونه سنّاً، إذ معيار التفاضل هو المعرفة لا العمر. كما يبيِّن أنَّ من نشأ ملازماً للعلم في صغره نشأ قويَّ العقل حاضر الجواب، فلا يُعاب عند السؤال ولا يُنسب إلى جهل أو قصور، فالعلم يحفظ لصاحبه مكانته ويمحو عنه ملامح النقص.

كما نجد في هذا القرن الشاعر "ابن السيّد البطلبوسي(ت521هـ)" حيث يقول: (القفطي، 1986، صفحة 143)

أَخُو الْعِلْمِ حَيٍّ خَالِدٌ بَعْدَ مَوْتِهِ وَأَوْصَالُهُ تَحْتَ التُّرَابِ رَمِيمٌ

وَدُوُّ الْجَهْلِ مَيِّتٌ وَهُوَ مَا شِ عَلَى النَّرَى يُظَنُّ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَهُوَ عَدِيمٌ

تُصوِّر هذه الأبيات قيمة العلم وأثره الخالد، فالعالم يبقى حياً بما خلقه من علم نافع وأثر باقٍ في القلوب والعقول، حتى وإن دفنت أعضاؤه تحت التراب وصارت رميمًا، أمّا الجاهل، فرغم أنَّه يمشي بين الناس، فهو في

حكم الأموات، إذ لا أثر له ولا قيمة تُذكر، فيُظن أنه حي، وهو في الحقيقة عديم الجدوى والفائدة، ففي الحديث "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ" (النيسابوري، 1388هـ، صفحة 3/1255).

وقال الأشبوني أيضا عن صحبة أهل العلم: (المراكشي ١، د.ت، صفحة ج3/327)

عَلَيْكَ بِصُحْبَةِ الْأَدْبَاءِ يَا مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَسُودَ عَلَى الصَّحَابِ
فَمَا فِي النَّاسِ أَرْفَعُ مِنْ أَدِيبٍ وَلَا فِي الْأَرْضِ أَرْفَعُ مِنْ كِتَابٍ

فهو يحث في هذين البيتين على صحبة الأدباء وأهل العلم، لأن من أراد السيادة والرفعة بين أصحابه لن يجد طريقاً أفضل من مجالسة أهل الأدب، ثم يبيّن أن لا شيء أرفع شأنًا في الناس من الأديب، ولا شيء يسمو في الأرض على منزلة الكتاب، لما يجمعه من علم وحكمة وخلود يتفوق على كل المراتب الأخرى.

2.2 العناية بالكتب ووصف خزائنها:

لقد تجلّى الاهتمام بالكتب وخزائنها في الغرب الإسلامي من خلال العناية بجمعها وتزيينها، حتى غدت المكتبات رموزاً للعلم ومفاخر الحضارة، ولم يقتصر هذا الحضور على الواقع، بل تسلّل إلى الشعر، حيث مدح الأدباء الكتب ونصحوا بها وعدّوها أنيساً في الخلوات، ووصفوا الخزائن بكونها كنوزاً للمعرفة ومصاييح للهداية، فغدا الشعر شاهداً على مكانة الكتاب ودوره في تشكيل الوعي العلمي والثقافي، فهذا الشاعر أبو الحسن بن الباذش (ت528هـ)، يقول في كتاب "الإيضاح" (السيوطي، 1384هـ-1964م، الصفحات 326-327):

أَضِعَ الْكَرَى لِتَحْفَظَ الْإِيضَاحَ وَصَلِ الْعَدُوَ لِقَهْمِهِ بِصَبَاحِ
هُوَ بُغْيَةُ الْمُتَعَلِّمِينَ وَمَنْ بَغَى حَمَلَ الْكِتَابِ يَلْجُهُ بِالْمِفْتَاحِ
مَضَتِ الْعُصُورُ وَكُلُّ نَحْوٍ ظُلُمَةٌ وَأَتَى فَكَانَ النَّحْوُ ضَوْءَ صَبَاحِ
أَوْصِي نَوِي الْإِعْرَابِ أَنْ يَتَذَكَّرُوا بِحُرُوفِهِ فِي الصُّحُفِ وَالْأَلْوَاكِ
فَإِذَا هُمُو سَمِعُوا النَّصِيحَةَ أَنْجَحُوا إِنَّ النَّصِيحَةَ غِبُّهَا لِنَجَاحِ

يلوّن الشاعر - في هذه الأبيات - معانيه بروح أدبية رفيعة، فيرسم صورة الطالب الساهر على نور المصباح، يترك لذة الكرى لينهل من معين كتاب "الإيضاح" لأبي علي الفاسي، وكأنّ الصباح لا يكتمل ضياؤه إلا بفهم نحو يفتح الأبواب المغلقة بمفتاح العلم، ثم يذكر بأنّ الأزمنة التي خلت كانت كليل كثيف تحجبه الغياهب، حتى بزغ النحو فيها كفجر صادق أزال الظلام وأشاع النور في الآفاق. ويوجّه وصيته إلى أرباب البيان بأن يتذكروا حروفه في الصحف والألواح، فإنّ في مدارسته حياة للعقول، وفي الإصغاء إلى النصيحة بشارة نجاح وفوز.

لا يخيب، ولا شك أنّ ذكره للتبكير في الحياة اليومية وعدم الخلود للنوم بعد الفجر سمّت عام ومظهر حضاري عند المسلمين في ذلك العصر، له فضل كبير لذا جاء في الحديث : "(اللَّهُمَّ بَارِكْ لَأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا)"، قال ابن عمر: "يراد به التبكير في طلب العلم والصلاة في الصفّ الأوّل في المساجد" (حنبل، 2008، صفحة 584/6)، فهذه المقطوعة تضمنت مظهرًا حضاريًا عكس جوانبًا من أحوال أهل بلاد الغرب الإسلامي في هذا القرن.

لم يقف الاهتمام في هذا القرن بالكتب تأليفًا وحفظًا، بل سعى لحمايتها بتأسيس الخزائن العلمية على غرار خزانة يعقوب المنصور بمراكش، ومكتبة الشاري بسبّطة (المنوني، حضارة الموحدين، 1989، صفحة 185)، وقد وصفها الشعراء وقتذاك فمما جاء في ذلك (المنوني، حضارة الموحدين، 1989، صفحة 186):

وَوَعَاءُ عُودٍ لِلْعُلُومِ صَيَانَةٌ حَمَلَتْ ذَخَائِرَهَا قَوَائِمُ أَرْبَعٍ
مَحْفُوظَةٌ الْأَشْكَالِ مِمَّا قَدْ حَوَتْ فَالْعِلْمُ يَحْفَظُ مَا حَوَاهُ وَيَمْنَعُ
خَشَبَ كُلُّوْنِ النَّبْرِ يُشْرِقُ فَوْقَهَا حُلِيِّ حَكَى لَوْنِ اللَّجِينِ وَيَسْطَعُ

يصف الشاعر وعاء الكتب وما حُفظ فيه من ذخائر العلوم، فيشبهه بصندوقٍ خشبيٍّ قائمٍ على أربع قوائمٍ تحفظ شكله وهيبته، فيكون حارسًا للمعرفة ومُصونًا لها من الضياع. ويؤكد أنّ العلم يحمي ما حواه ذلك الوعاء ويصونه من الامتهان، فصار الوعاء رمزًا للحفظ والرعاية، ثم يرتقي بالوصف الجمالي، فيصوّر الخشب بلون الذهب المشرق، مرصعًا بالخلي التي تشبه في لمعانها صفاء الفضة، فيغدو الوعاء آية في الجلال والفخامة، يجمع بين جمال المادة ورفعة المعنى بما يحمله من كنوز المعرفة، فهذا النوع من العناية ينبئ عن سرّ التطور والازدهار الحضاري في ذلك العصر. وقد نالت أيضًا مكتبة أبي الحسن الشاري بسبّطة هي الأخرى اهتمام الشعراء، فهذا أبو القاسم بن عمران، يقول مادحا مؤسسها ومبرزًا قيمتها: (المراكشي ١٠، د.ت، صفحة 288/8)

أَبَا حَسَنٍ رَادَتْ مَآثِرُكُمْ حُسْنًا بِفِعْلِ جَمِيلٍ مُوجِبٍ لَكُمْ الْحُسْنَى
لَكُمْ أَجْرُهُ الْأَوْفَى وَأَجْرُ مَنْ اقْتَفَى سَبِيلَكَ فِيهِ أَوْ بِسُنَّتِكَ اسْتَنَّا
أَجَلٌ فَالْيَدُ الطُّوْلَى فَلَيْسَ بِغَرِيبَا حَفِيٌّ بِأَهْلِ الْعِلْمِ مِنْتَكَ امْتَنَّا
تَخَيَّرْتَ أَغْلَاقَ الدَّوَاوِينِ مُعْرِضًا بِإِدْنَائِهَا مِنْكُمْ عَنِ الْعَرَضِ الْأَدْنَى

يفيض الشاعر في هذه الأبيات بمديح رفيع لمؤسس الصرح العلمي، فيصوّر "أبا الحسن" وقد ازدانت مآثره بفعلة نبيلة تُوجب له الذكر الحسن في الدنيا، والثواب الأوفى في الآخرة. ويبرز أنّ الأجر لا يقتصر عليه وحده، بل يشمل كلّ من اقتفى أثره وسار على سنّته في نصرته العلم وأهله. ثم يلمح إلى أنّ عطاياه ليست أمرًا طارئًا أو غريبًا، بل هي امتداد لطبع كريم ويدٍ طويلة طالما أظلت العلماء بمنّتها. ويبلغ الشاعر ذروة التصوير حين يصف اختياره

لأثمن الدواوين وأجلّ المصنّفات، معرضًا عن زخارف الحياة وأعراضها الدانية، ليشيّد من العلم صرحًا خالدًا، ويجعل من العطاء الفكري أبهى ما يخلّد ذكر الإنسان ويُعلي منزلته.

وهذا الشاعر أبو الحسن بن إسماعيل بن عبد الله الأغماتي (530-604هـ) يذكر ما تحويه هذه المكتبة من دُرر نفيسة، فيقول: (المراكشي ١، د.ت، صفحة ج8/290)

وَمَدْرَسَةٍ لِلْعِلْمِ قَلَّدَتْ جِيدَهَا	مِنَ الْكُتُبِ الْأَعْلَاقِ دُرًّا مُنْضَدًّا
وَلَيْسَ بِوُسْعِي أَنْ أَجِيءَ بِذِكْرِهَا	مُفَصَّلَةً إِذْ لَيْسَ تُحْصِي لَهَا عَدًّا
فَمِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ أَعْظَمُهَا غِنَى	وَأَنْفُسُهَا قَدْرًا وَأَنْعَمُهَا جَدًّا
وَمِنْ سُنَنِ الْمُخْتَارِ مَا صَحَّ نَقْلُهُ	وَجَاءَ بِهِ أَهْلُ الْعَدَالَةِ مُسْنَدًا
وَمِنْ عِلْمِي الْإِعْرَابِ وَاللُّغَةِ النَّيِّ	بِهَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْكِتَابَ الْمُمَجَّدَا

يرسم الشاعر لوحةً بديعةً لمدرسةٍ علميّةٍ جعلت من الكتب زينتها، ودرّها المنضّد كعقدٍ ثمين يزيّن جيدها ويخلّد مكانتها، ويعترف الشاعر بعجزه عن حصر تفاصيلها، إذ إنّ ما تملكه من ذخائر ومصنّفات يفوق العدّ والإحصاء، ثم يشرع في وصف جواهرها النفيسة، من كتب التفسير الغنيّة بالمعارف العميقة في الدلالة، إلى كتب الحديث الشريف التي نُقلت بسندٍ صحيح عن العدول الثقات، لتكون مصدرًا موثوقًا للعلم والدين، كما ينوّه بما تضمه من علوم الإعراب واللغة، وهي الوعاء الذي اختاره الله لإنزال كتابه الممجّد، فكانت هذه المدرسة منارةً تجمع بين أصول الشرع وعلوم اللسان، وتخلّد العلم في أبهى صورة من النظام والبهاء.

3.2 أدوات المعرفة ومجالسها:

تُمثّل أدوات المعرفة ومجالسها ركائز أساسية في بناء الصرح العلمي والحضاري، إذ شكّلت الأقلام والمحابر والكتب أوعيةً تحفظ نتاج العقول، فيما كانت المجالس العلمية فضاءاتٍ حية لتداول الأفكار وتناقل المعارف بين الشيوخ والطلبة، وقد جمع هذا التلاحم بين الأداة والمجلس بين مادّة العلم وروحه، فجعل المعرفة أكثر رسوخًا وانتشارًا، وأسهم في صياغة هوية ثقافية وفكرية ظلت آثارها شاهدة على رقي الحضارة الإسلامية في هذا القرن، فمن أبرز أدوات العلم " الجدول " الذي قال فيه ابن حمديس (ت527هـ): (حمديس، د.ت، صفحة 203)

وَجَدُولٍ جَامِدٍ فِي الْكَفِّ تَحْمِلُهُ	يَعُوضُ فِيهِ عَلَى دُرِّ النَّهْيِ النَّظْرُ
يَكْسُو السُّطُورَ ضِيَاءً عِنْدَ ظُلُمَتِهَا	كَأَنَّ يَنْبُوعَ نُورٍ مِنْهُ يُنْفَجِرُ
يُثَبِّتُ لِلْعَيْنِ عَنْ خَطِّ الْكِتَابِ كَمَا	شَفَّ الْهَوَاءَ وَلَكِنَّ جِسْمَهُ حَجَرُ
يُبْدِي الْحُرُوفَ بِجُرْحٍ نَالَهَا عِزُّ	فِيهِ وَقَرَّ عَلَيْهَا جَامِدًا نَهْرُ

نِعْمَ الْمُعِينُ لِشَيْخٍ كُلِّ نَاطِرُهُ وَصَغَرُ الْخَطِّ فِي الْحَاطِهِ الْكِبَرُ
يَرَى بِهِ صُورَ الْأَسْطَارِ قَدْ عَظُمَتْ كَعُنْصُلِ الْمَاءِ فِيهِ يَعْظُمُ الْوَبَرُ

يبدع الشاعر في تصوير أداة من أدوات العلم، هي "الجدول أو اللوح الزجاجي" الذي يُستعمل كعدسة أو وسيلة للقراءة، فيشبهه بالجدول الجامد الذي يغوص فيه النظر ليستخرج درر الحكمة، إذ يجعل السطور المظلمة تتلألأ كينبوع نور متفجّر، وهو جسم صلب كالحجر لكنه يشفّ للعين فيُظهر الخطوط كما يظهر الهواء ما خلفه، ويواصل التشبيه البديع، فيجعل الحروف كأنها جروح سالت عروقها بنهر جامد استقرّ عليها، ثم يبيّن فائدته العظمى حين يكون معيناً للشّيح الذي كلّت عيناه وضعف بصره، فيكبّر له الخط حتى يراه واضحاً جليّاً، كما يعظم الوبر في عنصل الماء، وهكذا يُظهر الشاعر كيف تحوّلت هذه الأداة البسيطة إلى جسر بين العيون المتعبة والمعرفة المتوهّجة.

ومن أدوات العلم أيضاً التي نالت اهتمام الشعراء "القلم" والذي قال عنه الرّصافي البلنسي (ت572هـ) (البلنسي، 1403هـ/1983م، صفحة 53):

قَصِيرُ الْأَنْبَابِ لَكِنَّهُ يَطُولُ مَضَاءَ طَوَالِ الرِّمَاحِ
إِذَا عَبَّ النَّفْسُ فِي دَامِسٍ وَدَبَّ مِنَ الطَّرْسِ فَوْقَ الصَّبَاحِ
تَجَلَّتْ لَهُ مُشْكِلَاتُ الْأُمُورِ وَلَآنَ لَهُ الصَّعْبُ بَعْدَ الْجَمَاحِ

فالقلم - كما تصوّره الأبيات - أداة صغيرة في حجمه، عظيمة في أثره، يجمع بين التواضع في الشكل والقوة في المضمون. فإذا ما غُمس في المداد وانساب فوق الطروس، أشرق كفجرٍ جديد يبدّد دياجير الظلام، ومن خلاله تُحلّ المعضلات وتُكشف الغوامض، فيغدو وسيلة لتهديب الفكر وفتح أبواب المعرفة. إنّه ليس مجرد أنبوب قصير، بل رمز للسلطان المعنوي الذي يطوّع الصعب بعد جموده، ويمنح صاحبه القدرة على امتلاك ناصية البيان والعلم.

ومن مظاهر الاهتمام بالعلم أيضاً، الاهتمام بمجالسه المختلفة، فقد كانت مناراتٍ مضيئة، يجتمع فيها العلماء والطلبة في جوٍّ من الهيبة والوقار، فتُعزّي العقول وتورث المعارف، وتغدو رمزاً حيّاً لاستمرارية العلم وخلود أثره عبر الأجيال، حيث كان الخلفاء والأمراء أصحاب الفضل فيها بعد الله عزّ وجلّ، وأكثر الدّاعين إليها لسُنّهم تلك الشرعة وتشجيعهم النّاس على الاجتماع لذلك، وقد كانت تلك المجالس محلّ وفادة الأدباء والعلماء لعرض ثمرات أفكارهم، واللقاء ما تجود به قرائحهم، وكل واحد من هؤلاء يرجو أن يكون له السبق والغلبة على سواه (عتيق، 1976، صفحة 199) فمن أمثلة تلك المجالس ما كان يُعقد كلّ أسبوعٍ للمناظرة، فمما جاء في وصفها ما قاله الشاعر ابن

حربون (ت564هـ)، يقول: (الغريب، 2004، صفحة 23)

مَجَالِسُهُمْ رُوضَاتُ عِلْمٍ يَزِينُهَا مِنْ الثَّوْرِ أَجْنَأَسُ ثُوْلَامٌ وَقَارِدُ
مَجَالِسُ لَوْ تَزَقَّى الْكَوَكِبُ نَحْوَهَا لَقَدْ بَاتَ تِلْمِيذًا لَدَيْهِمْ عُطَارِدُ
لَقَدْ عَمَرَتْ بِالْعِلْمِ حَتَّى كَأَنَّهَا لِكُنْزَةِ ذِكْرِ اللَّهِ فِيهَا مَسَاجِدُ

ترسم الأبيات صورةً بدیعةً لمجالس العلم وما تحمله من نور وهداية، فهي روضات غناء يزينا إشعاع المعرفة، وتزداد رفعةً حتى لتغدو الكواكب ذاتها طلاباً فيها، يتلقون الحكمة كما يتلقاها البشر، ويبلغ التعظيم مداه حين يشبه الشاعر تلك المجالس بالمساجد لكثرة ما يعلوها من ذكر الله وتلاوة العلم، فيجمع بين قداسة الدين وسمو الفكر، ليجعل من مجلس العلماء فضاءً عمرانياً وروحياً يشبه محراب العبادة، ومصدر إشعاع حضاري تتجلى فيه عظمة الثقافة الإسلامية.

لقد استحققت تلك المجالس الإشادة والمدح، نظير اهتمام حكّام هذه الحقبة بالعلوم، ولا سيما الدينية منها، فكان كثير من خلفاء القرن السادس فقهاء وعلماء، بلغ تشجيعهم للمعارف مبلغاً عظيماً، مادياً ومعنوياً تفتنوا فيه ما شاعت لهم همهمهم العظيمة أن يتقنوا (المنوني، حضارة الموحدين، 1989، صفحة 15)

إنّ العناية بالعلم في الغرب الإسلامي إبان القرن السادس الهجري قد شكّلت ركيزة أساسية في النهضة الحضارية، حيث أسهمت في اتساع حلقات الدرس، وتكاثر المصنفات، وازدهار المناظرات، وهو ما انعكس في الشعر الذي خلّد قيمة المعرفة ومكانتها، وإذا كان العلم قد مثّل الوجه الفكري للحضارة، فإنّ العمران بدوره سيجسّد مظاهرها المادية والواقعية، في صورة المدن والحصون والمعالم التي تحتضن هذه الحركة العلمية وتؤطرها.

3. الجانب العمراني:

مثّل العمران في الغرب الإسلامي إبان القرن السادس الهجري انعكاساً صريحاً لقوة الدولة ورسوخ حضارتها، فقد تجلّت ملامحه في بناء المدن وتحصين الحصون وشقّ الطرق وإقامة المساجد والقصور، فكان العمران الإطار المادي الذي احتضن الحركة العلمية والثقافية، ولم يكن الشعر بمنأى عن هذه المظاهر، بل التقط صورها ورسم ملامحها في أوصاف بليغة تخلّد عظمة المنجز الحضاري وتعبر عن روح العصر.

3.1 المراكز الحضرية والتحصينات:

برزت المدن والحصون في مناطق مختلفة من هذه البلاد كرموز للقوة ومراكز للعلم والتجارة، فجاء الشعر ليصف صلابتها ويخلّد بهاء عمرانها.

3.1.1 مراكش: وصف شعراء القرن السادس مدينة مراكش ضمن مدحهم لحكامها مبرزين قيمتها، يقول الشاعر

ابن حريون: (الصلاة، 1987، الصفحات 252-253)

وَأَصِخْ لِذِكْرِ الْيُوسُفِيَّةِ إِنِّهَا
مَنَعَتْ مَغَانِي الشَّعْبِ مِنْ أَنْ تُذْكَرَا
دَبَّجَتْهَا مِنْ حُسْنِ خُلُقِكِ جَنَّةً
وَسَقَيْتَهَا مِنْ جُودِ كَفِّكَ كَوْثَرًا
فَإِذَا سَقِيطُ الطَّلِّ رَفَ بِرُهْرِهَا
لَقَطَتْ بِهَا كَفُّ النَّسِيمِ الْجَوْهَرَا
كَانَتْ كَظْهَرِ التَّرْسِ مَرِيًّا صَحْصَحَا
فَنَسَجَتْهَا لِلْحَيْنِ رَوْضًا أَخْضَرَا
جَلَّتْ عَلَا لَكُمْ أَنْ يُحَاطَ بِوَصْفِهَا
حَتَّى تَسَاوَى مِنْ أَطَالٍ وَقْصَرَا

يكشف هذا النص الشعري عن قيمة اليوسفية بوصفها رمزاً حضارياً يجمع بين الجمال العمراني والخصب الروحي، فالشاعر لا يكتفي بالوصف المادي لأبنيتها وروضاتها، بل يمنحها بعداً معنوياً متصلاً بفضايا الخلق وكرم العطاء، حتى غدت في مخيلته جنة أرضية تشع نوراً ومعرفة، إنَّ الصُّور التي يوظفها، كالطلِّ المتساقط، والنسيم الذي يلتقط الجواهر، والتشبيه بالترس الذي تحوّل إلى خضرة زاهرة، تحمل دلالات عن قوة المكان ورسوخه، وفي الوقت نفسه عن إشعاعه الثقافي والروحي، وهكذا تتحول اليوسفية إلى معمار رمزي يجمع بين الصلابة المادية والبهاء الروحي، ويغدو وصفها شاهداً على مكانة المجالس العمرانية والعلمية في صوغ هوية الغرب الإسلامي.

2.1.3 حصن شقورة (الحميري، 1984، صفحة 349):

يُعدُّ من المعالم العمرانية البارزة في الغرب الإسلامي، شَيِّد ليكون شاهداً على عبقرية التحصين وروح الدفاع عن الحاضرة والإنسان، فجمع بين متانة البناء وجمال الموقع، وأضحى رمزاً لصدور المدن في وجه الأخطار، ودليلاً على ما أولاه المجتمع من عناية بالتحصينات لحماية العمران وصور الحاضرة، قال عنه أبو بكر بن عمار (خاقان، 1409هـ-1989م، صفحة 274):

بِمَعَارِجٍ أَدَّتْ إِلَى حَرْجٍ
حَتَّى مِنَ الْأَنْوَاءِ وَالْقَطْرِ
عَالٍ أَظُنُّ الْجِنَّ إِذْ مَرَدَّتْ
جَعَلَتْهُ مِرْقَاةً إِلَى النَّسْرِ
وَحَشٌّ تَنَازَلَتْ الْوُجُوهُ بِهِ
حَتَّى اسْتَرْبَتْ بِصَفْحَةِ الْبَدْرِ
جِصْنٌ تَمَهَّدَ بَيْنَ خَافِقِي
نَسْرَيْنِ مِنْ فَلَكَ وَمِنْ وَكْرِ
مُنْجَبِّرٍ سَالَ الْوَقَارُ عَلَى
عِطْفِيهِ مِنْ كِبَرٍ وَمِنْ كِبَرٍ
مَلَكَتْ عَنَانَ الرِّيحِ رَاحَتُهُ
فَجِيَادُهَا مِنْ تَحْتِهَا تَجْرِي

تُبرز هذه الأبيات صورةً رمزيةً لحصنٍ شامخ جعله الشاعر أيقونةً حضاريةً تتجاوز حدود الوصف المادي إلى أبعادٍ دلالية عميقة، فالحصن لم يعد مجرد بناءٍ عسكري يؤمّن الحماية، بل غدا رمزاً للقوة والهيبة وسمو العمران، حتى بدا وكأنه معراجٌ للجنّ ومقامٌ للنسور، وميدانٌ تتجلّى فيه عناصر الأسطورة والعظمة معاً، ويكشف هذا

التصوير عن وعي الشاعر بمكانة الحصون في بنية العمران بالغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، إذ لم تكن وظيفة التحصين قاصرة على الدفاع، بل ارتبطت بإبراز هيبة الدولة وترسيخ صورتها في المخيال الجمعي، فغدت الحصون معالم حضارية تترجم التمازج بين العمارة والفكر، وبين الواقع العسكري والرمزية الشعرية.

2.3 المساجد والقصور:

تُعدّ المساجد والقصور من أهم المعالم العمرانية في الغرب الإسلامي إبّان القرن السادس الهجري؛ إذ شكّلت المساجد مراكز للعلم والعبادة والتواصل الاجتماعي، بينما مثّلت القصور مظاهر للسلطة ومجالس الأدب والسياسة، فتكامل حضورهما ليعكس توازن العمران بين البُعد الروحي والبُعد المادي، وقد التقط الشعراء هذه الأبعاد، فكان الشعر شاهداً أدبياً على حضور العمران في وجدان المجتمع.

1.2.3 المساجد:

يقول ابن الجيّاب عن المسجد الأعظم بالأندلس: (الجياب، 2016، صفحة 63)

بَيِّتٌ لِيَذْكُرَ اللهُ أَسْسهُ عَلَى	عِمَادٍ مِنَ التَّقْوَى قَوِيّ الدَّعَائِمِ
وَأَنْفَقَ فِي بُنْيَانِهِ مَا أَقْهَاهُ	عَلَيْهِ إِفْتِحَاكُ الْمَازِقِ الْمُتَلَاكِمِ
تَنَاقَلَتْ الرُّكْبَانُ أَخْبَارَ حُسْنِهِ	فَطَيَّبْنَ أَنْفَاسَ الرِّيَّاحِ النَّوَاسِمِ
بَدَائِعِ حُسْنٍ تَقْصِرُ الطَّرْفَ بِهِجَةً	سِوَى ذِكْرِهَا مَسْرَى الْقِلَاصِ الرُّوَاسِمِ
أَضَاعَتْ بِهِ الْأَنْوَارُ مَثْنَى وَمَوْحِداً	وَجُنُحُ الدُّجَى ذُو غَيْهَبٍ مُتْرَاكِمِ
مَصَابِيحُ يَمْحُو نُورَهَا غَسَقُ الدُّجَى	وَأَنْوَارُ تَقْوَى مَا جِيَّاتِ الْجَزَائِمِ

تُشَيِّ هذه الأبيات بعمقٍ روحي وجمالي في تصوير المسجد الأعظم بالأندلس، حيث جمع الشاعر بين قدسية المكان وجلال العمران، فقَدَّم المسجد باعتباره بيتاً لله مؤسساً على التقوى، قائماً على دعائم راسخة، لا بمجرد الحجارة، بل بصفاء النية وصِدْقِ الطاعة، وجعل من النفقة في بنائه امتداداً لبركة الفتوحات وأثراً من آثار الجهاد، ولم يقف الوصف عند البُعد المادي، بل تجاوزه إلى إشعاع معنوي، فالمسجد صار منارةً تُضيء القلوب كما تُثير المصابيح جنباته، وجلالُه بلغ الأفاق حتى تناقلته الركبان، وصار حديثها طيباً كالنسيم العابر، هكذا يتجلى المسجد الأعظم في الشعر: فضاءً عمرانيّ وروحيّ في آن واحد، يترجم حضور العلم والعبادة والعمران في نسيج حضارة الغرب الإسلامي.

ويقول عن منبره: (الجباب، 2016، صفحة 65)

وَمِنْ أَعْظَمِ الْأَثَارِ مُنْبِرُكَ الَّذِي ذَخَرْتُ بِهِ أَزْكَى الْأَجُورِ الْجَسَائِمِ
هُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى الَّتِي مَا وَرَاءَهَا مَجَالٌ لِفِكْرٍ أَوْ مَرَامٍ لِرَآئِمِ
بَدَائِعٍ تَرْصِيعُ تَنَاظِيرُ حُسْنِهَا تَتَاطَرُ زَهْرُ الْعُرُوضِ غِبَّ الْعَمَائِمِ
كَأَسْلَافٍ يَأْفُوتُ وَدُرٌّ مُفَصَّلٍ تُضَاهِي حُلَى أَطَوَاقِ الْحَمَائِمِ

تسلط هذه الأبيات الضوء على المنبر باعتباره من أعظم آثار المسجد ورموزه الخالدة، إذ جعله الشاعر غاية كبرى لا تدانيها غاية، فهو ليس مجرد أثر عمراني مادي، بل رمز ديني وروحي يُختزن فيه ثواب عظيم وأجر جزيل، ويتجاوز الشاعر الوصف المجرد إلى تصويرٍ بدیع يقرن بين فنّ النقش والزخرفة- قال ابن عباس: لتزخرفها كما زخرفت اليهود والنصارى" (مؤنس، 1978، صفحة 23)- في المنبر وجمال الطبيعة، فيشبهه بترصيع يوازي تألق الزهور بعد المطر، أو كأنه حُلّ من ياقوت ودرّ منثور يُزيّن جيد الحمايم. هذا المزج بين القداسة والبهاء الفني يكشف عن وعي شعري بأن المنبر لم يكن فقط وسيلة للخطاب الديني، بل تحفةً عمرانية تنطق بجلال الفن الإسلامي وتؤكد تداخل الدين والعمران والفن في حضارة الغرب الإسلامي.

2.2.3 القصور:

أولى شعراء القرن السادس الهجري اهتمامًا خاصًا بوصف القصور في أشعارهم، معتبرينها رمزًا للسلطة والفخامة ومظاهر رقيّ الذوق العمراني، فقد صوّروها بتمعّن، جامعين بين متانة البناء وزخارفه الدقيقة وحدائقه الغناء، مبرزين في الوقت ذاته الجمال الفني وسمو المكان، معبرين عن العلاقة بين الحاكم والمجتمع، والفن والعمران، وما تحمله القصور من دلالات حضارية وثقافية في حياة الغرب الإسلامي، ومن بين هؤلاء الشعراء نجد ابن حمديس (ت527هـ) في وصفه لقصر المنصور الحمادي: (حمديس، د.ت، صفحة 545)

أَعْمُرُ بِقَصْرِ الْمَلِكِ نَادِيكَ الَّذِي أَضْحَى بِجَدِّكَ بَيْتُهُ مَعْمُورًا
قَصْرٌ لَوْ أَنَّكَ قَدْ كَحَلْتَ بِنُورِهِ أَعْمَى لَعَادَ إِلَى الْمَقَامِ بَصِيرًا
وَاشْتَقَّ مِنْ مَعْنَى الْجِنَانِ نَسِيمَهُ فَيَكَادُ يُحْدِثُ بِالْعِظَامِ نُشُورًا
نَسِيَ الصَّبِيحُ مَعَ الْفَصِيحِ بَذْكِرِهِ وَسَمًا فَفَاقَ حَوْرُنَقًا وَسَدِيرًا
لَوْ أَنَّ بِالْإِيوَانِ قُوبِلَ حُسْنُهُ مَا كَانَ شَيْئًا عِنْدَهُ مَذْكَورًا

تعكس أبيات ابن حمديس في وصف قصر الملك مدى اهتمامه بالقصور ليس كمساكن فاخرة فحسب، بل كرموز للسلطة والفخامة والجمال الحضاري في الغرب الإسلامي، فالقصر يظهر في المخيال الشعري بيتًا معمورًا

يضيئه نور الهيبة والعظمة، مع نسيم يكاد يحيي العظام، ما يدل على وعي الشاعر بتأثير المكان على المتلقي نفسياً وروحياً، ويستمد المكان أيضاً بعده الرمزي من معنى الجنان، ما يربطه بالقداسة والجلال، بينما تتفرد الإيوانات والزخارف في إظهار تميز القصر عن كل ما سواه، فتجمع الأبيات بين العمارة الراسخة والجمال الفني والرمزية الشعرية، ومن خلال هذا المزج، يبرز قصر الملك كفضاء يدمج بين الهيبة السياسية والجمال الفني والدلالة الرمزية، مؤكداً دور الشعر في التعبير عن القوة الحضارية والذوق الجمالي في هذه الحقبة.

وقال عنه أيضاً: (حمديس، د.ت، صفحة 546)

أَذْكُرْتَنَا الْفِرْدَوْسَ حِينَ أَرَيْتَنَا غُرْفًا رَفَعْتَ بِنَاءَهَا وَقُصُورًا
أَبْصَرْتُهُ فَرَأَيْتُ أَبْدَعَ مَنْظَرٍ ثُمَّ انْتَشَيْتُ بِنَاطِرِي مَحْشُورًا
فَطَنَنْتُ أَنِّي حَالِمٌ فِي جَنَّةٍ لَمَّا رَأَيْتُ الْمُلْكَ فِيهَا كَبِيرًا
وَإِذَا الْوَلَّادُ فَتَحَتْ أَبْوَابَهُ جَعَلَتْ تُرْحَبُ بِالْعَقَاةِ صَرِيرًا
عَضَّتْ عَلَى حَلَقَاتِهِنَّ ضَرَاغِمَ فَعَرَّتْ بِهَا أَفْوَاهَهَا تَكْشِيرًا
فَكَأَنَّهَا لَبَدَتْ لِتَهْصِرَ عِنْدَهَا مَنْ لَمْ يَكُنْ بِدُخُولِهَا مَأْمُورًا

تُبرز هذه الأبيات قدرة الشاعر على المزج بين الواقع العمراني والجمال الشعري والرمزية، فهي تبدأ بتصوير البوابات والأبواب وكأنها حراس يحرسون المكان، مستقبلية الداخلين بحذر وعنفوان، ما يعكس إحكام التحصين وحماية القصر، ثم ينتقل الوصف إلى الغرف والقصور ذات البنيان العالي والمناظر البديعة، حتى يخال الناظر نفسه في الفردوس، مستغرقاً في حلم يرمز إلى الفخامة والجلال، ويبرز من خلال هذا المزج أنَّ القصر ليس مجرد مكان مادي، بل فضاء يعبر عن السلطة والهيبة والذوق الرفيع، ويجمع بين الأمن والجمال والفن، مؤكداً الدور الحضاري والثقافي للقصور في تلك المنطقة.

ويستمر الشاعر في وصف كل ما تقع عليه عينه، فيعمد إلى ذكر أجزاء من القصر، قائلاً: (حمديس، د.ت،

صفحة 547)

وَمُصَفِّحِ الْأَبْوَابِ تَبَرَّأَ نَظَرُوا بِالنَّقْشِ بَيْنَ شُكُولِهِ تَنْظِيرًا
تَبْدُو مَسَامِيرُ النَّظَارِ كَمَا عَلَتْ تِلْكَ النَّهُودُ مِنَ الْحِسَانِ صُدُورًا
خَلَعَتْ عَلَيْهِ غَلَائِلًا وَرُسِيَّةً شَمْسٌ تَرْدُ الطَّرْفَ عَنْهُ حَسِيرًا

تُظهر هذه الأبيات اهتمام الشاعر البالغ بتفاصيل القصر، حيث يصف الأبواب المصقولة بالنقوش الذهبية والزخارف البديعة التي تزينها، مسلطاً الضوء على التناسق والجمال في تصميمها، مبرزاً العناصر البارزة مثل

المسامير والغلائل والزخارف التي تعكس ضوء الشمس وتزيد المكان بهاءً، ما يدل على وعيه بالجمال الفني ودور الضوء في إبراز الهيبة العمرانية، ومن خلال هذا الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة، يظهر القصر كمكان يجمع بين الفخامة المعمارية، القوة الرمزية، والجمال الفني، ليصبح وصفه تجربة شعرية متكاملة تعكس العلاقة بين الواقع العمراني والرمزية الملكية والجمالية الشعرية في حضارة منطقة الغرب الإسلامي.

ثم ينتقل إلى وصف سقف القصر، فيقول: (حمديس، د.ت، صفحة 547)

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى غَرَائِبِ سَقْفِهِ أَبْصَرْتَ رَوْضًا فِي السَّمَاءِ نَضِيرًا
وَعَجِبْتَ مِنْ خُطَافِ عَسْجِدِهِ الَّتِي حَامَتْ لَتْنِي فِي ذَرَاهِ وَكُورًا
وَضَعْتَ بِهِ صُنَاعَهُ أَقْلَامَهَا فَأَرْتِكَ كُلَّ طَرِيدَةٍ تَصْوِيرًا
وَكَأَنَّمَا لِلشَّمْسِ فِيهِ لُفْيَةٌ مَشَقُّوا بِهَا التَّزْوِيقَ وَالتَّشْجِيرًا
وَكَأَنَّمَا اللَّارْزُورْدُ مُحَرَّمٌ بِالْخَطِّ فِي وَرَقِ السَّمَاءِ سَطُورًا
وَكَأَنَّمَا فَرَشُوا عَلَيْهِ مَلَاءَةً تَرَكُّوا مَكَانَ وَشَاحِهَا مَقْصُورًا

يُصَوِّرُ الشاعر القصر وكأنه روضة سماوية، تتجلى فيها براعة البناء والزخارف الدقيقة، مبرزًا الخطاطات والزخارف التي حامت لبناء القمة، ووضع الحرفيون أقلامهم لتصوير كل جزء بدقة، مع إبراز دور ضوء الشمس في تعزيز التزيين والتشجير، فتتحول القمة إلى لوحة فنية حية تشبه الأزرق السماوي المزخرف، كما يترك الشاعر مساحات محددة للأماكن المهمة، ما يدل على وعيه بالتصميم والتناغم بين الزخارف والفن والوظيفة المعمارية، ومن خلال هذا الوصف، يظهر القصر كفضاء يدمج بين الهيبة العمرانية والجمال الفني والرمزية السماوية، مؤكدًا الدور الحضاري للعمارة في التعبير عن الجلال والفخامة في حضارة الغرب الإسلامي، وهذا السقف المزين يشبه سقف قصير "عُميرة" الذي يقع على نحو خمسين كلم شرقي عمان والذي يرجع تشييده للعصر الأموي. (بورويبة،

1397هـ/1977م، صفحة 248)

وأمام قصر المنصور نجد بركة محاطة بتمائيل تمثل مختلف الحيوانات: (حمديس، د.ت، صفحة 548)

وَضَرَاغُمْ سَكَنْتْ عَرِينَ رِئَاسَةٍ تَرَكَّتْ خَرِيرَ الْمَاءِ فِيهَا زُرِيرًا
فَكَأَنَّمَا غَشِيَ النُّظَارَ جُسُومُهَا وَأَدَابَ فِي أَفْوَاحِهَا الْبُلُورًا
أُسْدٌ كَانَ سُكُونُهَا مُتَحَرِّكٌ فِي النَّفْسِ لَوْ وَجَدَتْ هُنَاكَ مُثِيرًا
وَتَذَكَّرَتْ فَتَكَاتِهَا فَكَأَنَّمَا أَفْعَتْ عَلَى أَدْبَارِهَا لَتْنُورًا
وَتَخَالَهَا وَالشَّمْسُ تَجْلُو لَوْنَهَا نَارًا وَالسُّنْهَى اللَّوْاجِسُ نُورًا

تعكس هذه الأبيات تصوير ابن حمديس للبركة أمام قصر المنصور باعتبارها عنصراً معمارياً وجمالياً غنياً بالرمزية، فالبركة محاطة بتمائيل تمثل مختلف الحيوانات، تبدو وكأنها حيّة، ويبرز ذلك في تصوير الضواري التي سكنت عرين رئاسة وخيرير الماء الذي يصاحبه زئير، ما يعطي الانطباع بالحيوية والقوة، كما يوضح الشاعر أثر الضوء والشمس على المياه والتمائيل، فتتألق كالنار والبلور، مع إبراز الحركة الظاهرية في سكون التمائيل، وكأنّها تتفاعل مع المحيط، وبهذا المزج بين الطبيعة، والزخارف، والرمزية الملكية، والتأثير البصري، تتحول البركة إلى فضاء حي يعكس الفخامة والهيبة والجمال المعماري للقصر، مؤكداً براعة ابن حمديس في ربط الواقع المعماري بالمجاز الشعري والرمزية البصرية في حضارة المنطقة في تلك الحقبة.

فالتأمل في قصيدة ابن حمديس يألّفها لوحة فنية تضافرت فيها فنون الجمال من رسم وتصوير ونحت وموسيقى، فدلّت بذلك على قدرة أدبية عجيبة لهذا الشاعر الذي وُصف أنّه "عفيف اللفظ نبيل الفكرة، لغته واضحة وأسلوبه مشرق إذ تألق في وصف الطبيعة ولذات الحياة وعجائب الكون.. وكل ذلك يرسمه بلفظ أنيق وتصوير دقيق وعبارة بيّنة" (الزيّات، 1413هـ-1993م، صفحة 375)

3.2.3 النّافورات والتمائيل:

تُعدّ النّافورات والتمائيل من أبرز المظاهر العمرانية والفنية التي عرفتھا المدن الإسلامية والغربية، إذ شكّلت علامات جمالية ووظيفية في الفضاءات العامة والقصور، ولشعراء هذه الحقبة أبيات كثيرة في وصفها، منها قول القلعي الأصم (ت529هـ) في فوّارة: (الأصبهاني، 1375هـ-1955م، صفحة 339)

وَحَاكِیَّةٌ بِالْمَاءِ لَوْ أَنَّ اضْطِرَابِهِ	قَوَامًا وَحُسْنًا حِينَ يَبْدُو وَيُوبِصُ
قَضِيبُ لُجَيْنٍ أَلَمَعَ الصَّقْلُ مَتْنُهُ	وَأَخْلَصَهُ فِي السَّبَكِ مِنْ قَبْلِ مُخْلِصُ
تَسَامَى قَلِيلًا ثُمَّ عَادَ كَأَنَّهُ	جُمَانٌ، حَوَالِيهَا عَلَى الْمَاءِ يَرْقُصُ
تُضَايِقُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ كَأَنَّهَا	لَهَا بَيْنَ هَاتِيكَ النُّجُومِ تَلْصُقُ
كَأَنَّ نَوْلًا مِنْ يَمِينِ "كَرَامَةِ"	يُمَدُّ بِهِ إِذْ نَرَى الْمَاءَ يَنْقُصُ

يعكس هذا الوصف للنّافورة اهتمام الشاعر بالحركة والضوء والمواد في المشهد المعماري والزخرفي، حيث يبدأ بتصوير الماء في حالة اضطرابه وجماله، مُبرزاً التغيرات المستمرة في الارتفاع والهبوط، فيعطي الانطباع بالحيوية والديناميكية، ثم يصف عمود النافورة المصنوع من اللّجين المصقول بعناية فائقة، مشيراً إلى براعة الصنع ودرجة الإتقان في السبك، بما يدلّ على الدقة الفنية والمهارة التقنية، ويبرز أيضاً أثر انعكاس الماء على العمود، فتبدو الحليّة وكأنّها جوهرة تحوم على سطح الماء، متفاعلة مع الضوء لتخلق منظرًا ساحرًا يشدّ النظر، كما يلمح الشاعر

إلى ارتفاعه واستقامته نحو السماء، في إشارة إلى ما يضيفه من مهابة وجلال على المشهد، بما يشبه التحديق بين النجوم، ما يضيف على المشهد بُعداً رمزياً وروحانياً، إذ يصبح الماء والنافورة مزيجاً بين الحركة الطبيعية والجمال الفني والتأمل الرمزي، مؤكداً قدرة الشعر على نقل التجربة الحسية والمعمارية بأسلوب شعري بديع.

إنّ النافورات التي وصفها شعراء القرن السادس الهجري غالباً ما ارتبطت بالتماثيل، ورغم التحريم الشرعي للتماثيل، لا سيما المجسدة للإنسان والحيوان نظراً لخطر مشابهة الخلق الإلهي (القرعاوي، 2004، صفحة 385)، إلّا أنّ أهل الغرب الإسلامي في تلك الفترة تجاوزوا هذه التحذيرات، متأثرين بالنقوش والتماثيل الإسبانية والنصرانية، فزينوا بها القصور والمنازل والساحات العامة (الدسوقي، 1996، صفحة 78)، ومن هذا المنطلق، نجد أنّ التراث الشعري لهذه الحقبة احتوى العديد من النصوص التي تصف التماثيل والنافورات، معتبرة إيّاها عنصراً معمارياً وجمالياً بارزاً يعكس التطور العمراني والفني في بلاد الغرب الإسلامي إبّان القرن السادس الهجري.

وقد ذكر المقرئ صورة بديعة الشكل بحمام الشطارة بإشبيلية، فوصفها بعض أهل الأندلس: (المقرئ، 1949، صفحة ج73/1)

وَدُمِيَّةٌ مَرْمَرٌ نُزْهِىَ بِجِدٍ تَنَاهَى فِي التَّوَرْدِ وَالْبَيَاضِ
لَهَا وَلَدٌ وَلَمْ تَعْرِفْ خَلِيلاً وَلَا أَلَمْتُ بِأَوْجَاعِ الْمَخَاضِ
وَنَعْلَمُ أَنَّهَا حَجَرٌ وَلَكِنْ تُثَيِّمُنَا بِالْحَاطِظِ مِرَاضِ

تعكس هذه الأبيات مدى اهتمام شعراء الأندلس بتفاصيل العمارة والزخارف الداخلية، حيث بدأ الوصف بالإشارة إلى المواد المستخدمة، فالدمية مصنوعة من الرخام اللامع الذي يجمع بين البياض والتورد، ما يعكس دقة الصنعة وروعة اللون والملبس، ثم يلفت الشاعر الانتباه إلى أنّ هذه الدمية رغم كونها حجراً جامداً، إلّا أنّها تثير إعجاب الناظرين، فتمنحهم إحساساً بالحياة والجمال، ويظهر بذلك التأثير النفسي والجمالي للمواد المعمارية على المتلقي، كما يوظف الشاعر أسلوب التشخيص في تصوير الحجر وكأنّه كائن حي له ولد ولم يعيش تجربة المخاض، ما يضيف على المشهد بُعداً شعورياً ورمزياً، يبرز قدرة الشعر على تحويل الواقع المادي إلى تجربة بصرية وشعرية غنية.

4. خاتمة:

ختاماً لهذا الموضوع يمكن الخروج بالنتائج الآتية:

- تجاوز شعر الغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري حدود الوصف الحسيّ ليعبّر عن رؤية حضارية متكاملة.
 - تكامل العلم والعمران بوصفهما ركيزتين أساسيتين في بناء النهضة الحضارية.
 - نجاح الشعراء في المزج بين جمالية الصورة الفنية وعمق الفكر، فجاء الشعر سجلاً أدبياً حافظاً لملامح المجتمع وقيمه.
 - تجلّى حضور العلم في تمجيد الكتب، والإشادة بالعلماء، والتتويه بدور المعرفة في بناء الإنسان وإحياء الأمة.
 - عكس الشعر وعياً حضارياً بالعمران عبر توثيق المدن والحصون والمساجد والقصور والفضاءات الجمالية بوصفها مكوّناً للهوية الثقافية.
 - قيام علاقة جدلية بين العلم والعمران؛ إذ وجّه العلم مسار البناء الحضاري، بينما هيأ العمران بيئة لازدهار الحركة العلمية.
 - تحوّل الشعر إلى وسيط جمالي ونقدي أسهم في صياغة الوعي وإبراز الهوية الحضارية للغرب الإسلامي.
- ويُستشفّ من هذا المتن الشعري أنّه لا يزال يفتح آفاقاً رحبة أمام الباحثين لتعميق فهم التفاعل بين الأدب والتحوّلات الحضارية، وإغناء الدراسات البينية المقارنة في مجالات التاريخ والفكر والعمارة، وفي هذا السياق، يمكن اقتراح توسيع مجال البحث بتتبّع حضور ثنائية "العلم والعمران" في العصور اللاحقة، كالقرنين السابع والثامن الهجري، أو بمقارنتها بما كان في المشرق الإسلامي لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف، كما يُقترح الاهتمام بالمصادر الشعرية المهملة، والعمل على تحقيق دواوين بعض الشعراء المغاربة والأندلسيين التي لم تُطبع بعد، لما قد تكشفه من نصوص جديدة تُسهم في تعميق فهم العلاقة بين الأدب والتحوّلات الحضارية، وتعزيز قيمة الشعر بوصفه مرجعاً حضارياً أصيلاً.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم
2. ابن الجياب، (2016)، الديوان، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
3. ابن حمديس، (د.ت)، الديوان، دار صادر، بيروت- لبنان.
4. ابن خاقان أبو نصر الفتح، (1409هـ-1989م)، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، مكتبة المنار، الأردن.
5. ابن صاحب الصلاة عبد الملك، (1987)، المن بالإمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان.
6. الأصبهاني عماد الدين، (1375هـ-1955م)، خريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء المغرب والأندلس-مطبعة المجمع العلمي العراقي، العراق.
7. البننسي الرصافي، (1403هـ/1983م)، الديوان، دار الشروق، بيروت.
8. بن حنبل أحمد (2008)، المسند، دار الكتب العلمية، لبنان.
9. بورويبة رشيد، (1397هـ/1977م)، الدولة الحمادية-تاريخها وحضارتها-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
10. الحميري محمد عبد المنعم، (1984)، الروض المعطار في خبر الأقطار، مطابع هيدرلغ، لبنان.
11. الزيّات أحمد حسن، (1413هـ-1993م)، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت -لبنان.
12. السيوطي جلال الدين بن عبد الرحمن، (1384هـ-1964م)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، مطبعة عيسى الحلبي، مصر.
13. الشناوي علي الغريب، (2004)، شعر عمر بن أبي حربون، مكتبة الآداب، القاهرة.
14. عتيق عبد العزيز، (1976)، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت.
15. علي محمد الصلابي، (1998). دولة الموحدين، دار البيارق للنشر، عمان.
16. عمر فروخ، (1981)، تاريخ الأدب العربي - عصر المرابطين والموحدين - دار العلم للملايين، بيروت.
17. القرعاوي محمد عبد العزيز السليمان، (2004)، الجديد في شرح كتاب التوحيد، دار البصيرة، مصر.
18. القفطي، (1986)، إنباه الرواة على أنباء النحاة، دار الفكر العربي، القاهرة.
19. محمد المنوني، (1397هـ-1997م)، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين دار المغرب للتأليف والنشر، الرباط.
20. محمد المنوني، (1989)، حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب.

21. محمد ناصر الدين الألباني، (1419هـ-1998م)، صحيح سنن أبي داود، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض - السعودية.

22. المراكشي بن عبد الملك، (د.ت). الذيل والتكملة (السفر الخامس)، دار الغرب الإسلامي، تونس.

23. المراكشي عبد الواحد بن علي، (1426هـ/2006م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المكتبة العصرية، بيروت.

24. المقري أحمد، (1949)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مطبعة السعادة، مصر.

25. مؤنس حسين. (1978). المساجد. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

26. النيسابوري، مسلم بن الحجاج (1388هـ)، صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، لبنان.

الأطروحات:

27. نوال الدسوقي. (1996)، التأثير الإسباني في المجتمع الأندلسي وصورته في الأدب، كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية، الأردن.